استمرارية النضال

«. . . . يتوجب تدويل مشكلتنا . حاليًا تعبّر الأمم الأفريقية بوضوح عن مشكلة التفرقة العنصرية فى الميسيسيبى ، وتربط بينها وبين مشكلة التفرقة العنصرية فى الكونغو وبين مشكلة التفرقة العنصرية فى ڤيتنام الجنوبية أيضًا .

جميعها تفرقة عنصرية وعندما تبدأ جميع هذه الشعوب داخل تلك المناطق المختلفة فى النظر إلى هذه المشكلة على أنها واحدة ، وعندما يرى الاثنان والعشرون مليونًا أمريكيًا أسود أن مشكلتنا تماثل مشكلة الشعوب التى ترزح تحت وطأة الظلم فى ڤيتنام الجنوبية والكونغو وأمريكا اللاتينية ـ عندها سوف تشكّل الشعوب المظلومة فى هذه الدنيا أغلبية . . . . ثم نواجه مشكلتنا بوصفنا أغلبية يمكنها فرض رغبتها ، وليس بوصفنا أقلية ينبغى لها تَسَوُّلُ حقها» .

مالكولم إكس ، ١٩٦٥م .

خلال دراستى فى كوبا كان لى حظ الإقامة فى المعهد العالى للفنون الذى يقع على مسافة عشرين دقيقة من هاڤانا ڤييجا (هاڤانا القديمة) ، وهو معهد لتعليم الفنون ، حيث تقبع الجامعة على أراض كانت يومًا ما ناديًا ريفيًا أمريكيًا قبل اندلاع ثورة الشعب الكوبى عام ١٩٥٩م ، وهذا النادى الريفى كان مخصصًا للبيض فقط ، وكان مسموحًا للچنرال «باتيستا» رئيس كوبا فى ذلك الوقت بأن يلعب الجولف داخل النادى بحكم منصبه ، ولكنه لا يستطيع الحصول على عضوية النادى بسبب لونه الداكن ، الذى يُنبئ عن سلالته الأفريقية ، ولا حاجة للقول بأن جميع الكوبيين ذوى السحنة المشابهة له لا توجد لديهم الفرصة لعضوية أو لدخول النادى على الأساس نفسه .

كان هناك عامل بناء يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا ضمن العديد من الشباب الذين قابلتهم فى الجامعة هناك، وكان قبل أن أقابله بخمس سنوات يحاول الإبحار للوصول إلى ميامى ؛ ليلحق بالعيش مع إخوته الثلاثة الذين يعملون فى المطاعم هناك، وألقى حرس السواحل الأمريكى القبض عليه، وأعادوه إلى كوبا ليسجن بها، ويُحكم عليه بغرامة باهظة. وبعد خمسة أعوام من العمل فى هاڤانا، كان قد دفع ما يوازى خمسة عشر فى المائة فقط من الغرامة الموقعة عليه، وكان يطلق على نفسه اسم (الفلسطينى) ؛ حيث إنه كان لاجئًا من مدينة سنتياجو الكوبية، ولجأ إلى هاڤانا للعمل للحصول على الدولارات الأمريكية التى لا يمكنه الحصول عليها فى مدينته الأصلية. اختار هذا الشاب مغامرة الإبحار اليائسة إلى ميامى ؛ لأنه لا يمكنه الحصول على أية وظيفة تتيح له الأجر بالدولارات ؛ وانحدر به الحال للعودة إلى أعمال البناء.

ولقد قال لى السفير المناوب لكوبا لدى الأمم المتحدة بنيويورك لدى إخبارى بهذه القصة أثناء حفل غداء: «إن هذه الظاهرة هى نتيجة عملية تعليم الشعب الكوبى»، وأبديت له موافقتى التامة على قوله: إنه التعليم الذى يتوفر للشعب هو الذى يسمح لهم بأن يطلّوا من نافذة المقارنة مع أوضاع الآخرين حول العالم.

تعمل العقول المتفتحة للناس على إيجاد الروابط، مثلما فعلت ثقافة الشارع الكوبى مع موقف الشعب الفلسطينى ؛ حيث خرج الشعب فى كوبا فى الكثير من المناسبات إلى جزء من الطريق السريع على الشاطئ ؛ لإظهار تأييدهم للشعب الفلسطينى من خلال المظاهرات التى يقودها الزعيم الكوبى «كاسترو» بالتضامن مع مختلف زعماء العالم، ولقد تزامنت إقامتى مع زيارة لحفيد «آية الله روح الله الخمينى» الذى شارك فى تظاهرة لمعارضة انتهاك إسرائيل لحقوق الإنسان من خلال ممارسات جيش إسرائيل أثناء الانتفاضة الأولى (التى كانت ذات طبيعة سلمية).

إن المفهوم الإدراكى لوجود رابطة تربط بين الناس المهمّشين فى العالم ضد القوة العظمى فى ذلك الوقت، يبرهن على استمرار حيويته عند تطبيقه على مشاكل الأوضاع الحالية. إننى أكتب هذا الجزء على خلفية من صورة لـ «إرنستو شى چيڤارا» وهو يصافح الرئيس «جمال عبد الناصر» فى القاهرة. يقاتل الشباب المسلم

والمسيحى فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين مثل مخيم «جنين» بالسلاح للدفاع عن وطنهم، ومن خلفهم تملأ الصور التاريخية للثورة الكوبية حوائط تقاطعات الشوارع، وتجد تحت صور «جيفارا» - الطبيب الأرجنتينى الثائر - العبارة التالية مكتوبة: «أنا لست محرِّرًا، فالمحررون لا وجود لهم، إنما الشعوب هى التى تحرر نفسها».

إن سبب المعاناة المشتركة، رغم حدود العرق والدين، ينشأ من تشابه مناخ النمو؛ فعلى سبيل المثال هناك مفهوم مشترك بين فنزويلا والدول العربية المنتجة للبترول تجاه التهديد الأمريكى لتمتع هذه الدول الكامل بموارد ثروتها، ويحدث التعاطف بين شعب شيلى فى فشله فى محاولة جلب «أوجستو بينوشية» للعدالة وللمثول أمام محكمة دولية، مع المحاولة الدولية الفاشلة لمواجهة «آرييل شارون» بتهم مماثلة فى هذه الساحات.

يشكل ما سبق - بالإضافة إلى الجهود المستميتة من أجل البقاء - قوة متينة تدفع إلى الالتحام بين الشعوب التى تتشارك فى النضال، بالنسبة إلى المسلم يجرى هذا الفهم على وفاق مع شرع الله.

يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، يضع الشيخ الجنوب أفريقى «سعد الله خان» - والذى انضم إلى قيادات جماعة المسلمين الأمريكيين - عنوانًا لتفسيره لهذه الآية يقول «ماجنا كارتا الأخوة الإنسانية». ويكتب «هنا تتعرض للزوال جميع الأفكار الزائفة الخاصة بالعناد العنصرى، وعبادة الوطن (الشوفينية)، وغرور القوة المتفوقة، والجنس المتفوق، والتصلب الناشئ عن القبلية، والتفرقة العنصرية، والقومية، والتفوق الاقتصادى»[1].

ويكتب الدكتور فتحى عثمان عن الآية نفسها:

«هناك مساواة بين جميع الناس فى مختلف الأمكنة والأزمنة، بمعايير الحقوق والكرامة، وهم متساوون أمام الله مهما اختلفت سماتهم الجسدية والثقافية. قد تشكل

---

(١) سعد الله خان: أبعاد القرآن. ص ٧١ / ١٩٩٩م.

القبائل والقوميات والعرقيات وبالمثل اللغات ، تصنيفًا ملائمًا للاعتبارات العملية والعلمية، لكن لا ينبغى لذلك إخفاء جوهر المساواة الإنسانية، والحقوق لمختلف الأفراد والجماعات، أو أن تصبح عائقًا يحول فيما بينهم . ينبغى على كل سكان العالم أن يعلموا ليس فقط أسماء دول الآخرين على الخريطة، ولكن أيضًا كل الظروف المادية والثقافية لمختلف المجموعات البشرية ؛ بحيث يمكنهم مجتمعين زيادة ثراء الخصائص الإيجابية، ويتعاضدون مجتمعين ضد السلبى من هذه الخصائص؛ هذا هو معنى التعارف الحقيقى والاعتراف المتبادل ببعضنا البعض، واللذان يقودان إلى التعاون والتضامن الدوليين»[1] .

يحدد ما سبق بوضوح أن القرآن يبيّن بجلاء مفهوم تواصل الخبرة الإنسانية، ويوجب القرآن على المسلم أن يعترف بالتنوع الذى وهب الله نعمته للإنسانية .

إن من أشكال العبادة أن نقر ونعترف بالتنوع الإنسانى الذى خلقه الله تعالى، وأن نستغل هذا التنوع لإعلاء شأن ما هو مشترك أعظم مثل حقوق الإنسان العالمية .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢] .

ينبغى أن يكون واضحًا أن ذلك ليس إسلامًا جديدًا أو إسلامًا محسنًا، كما أنه ليس ثوريًا بالمقارنة بكتابات الفقهاء خلال تاريخ الفكر الإسلامى؛ وليس تفسير الدكتور عثمان تفسيراً ليبراليًا بالمقارنة بالموجود فى التيار السائد من كتابات الفقهاء الإسلاميين العالميين . ومازلت أتذكر اجتماعًا أقامته المؤسسة الإسلامية لمقاطعة أورانج ، حيث استضافت فيه دكتور يوسف القرضاوى، ودكتور حسان حتحوت، ودكتور ماهر حتحوت . والدكتور القرضاوى فقيه مصرى محترم بوصفه واحدًا من أكثر الأصوات بروزًا فى الفكر الإسلامى المعاصر، فقد دأب الشيخ القرضاوى خلال الاجتماع على تثمين وإطراء فقه الأخوين حتحوت وبالمثل الدكتور عثمان، مشيراً إلى بعض من إنجازاتهم الكثيرة للإسلام فى الولايات المتحدة . وفى الحقيقة وخلال زيارة دكتور حسان حتحوت الأخيرة لمصر قام شيخ الأزهر بزيارته فى

---

(١) فتحى عثمان: مفاهيم القرآن. ص ١٢١ / ١٩٩٧م.

منزله. بذلك ينبغى النظر إلى الآباء المؤسسين لفكر المسلمين الأمريكيين، نتيجة للتقدير الذى حظوا به من زملائهم ذوى المكانة البارزة كممثلين للتيار السائد، بوصفهم أعضاء فى جماعة الفقهاء التى تثير الفكر الناقد لدى جميع المسلمين فى أنحاء العالم، وأيضًا للأجيال القادمة.

إننى أرى الجزء العامل الذى ساهم فى تقدم وطننا، وإذا كان من واجب قادتنا فى واشنطن أن يحافظوا على العلاقات مع الدول الأخرى، فإن من الواجب على الأمريكيين أن يحافظوا على تفهم الآخرين وتفهم ثقافاتهم وأساليب حياتهم المتنوعة؛ بدون ذلك سوف تقع محاولتنا لقيادة العالم نحو حياة رغدة ضحية للتحالفات الاجتماعية التى تتخلق بين المظلومين متضامنة ضد حكومتنا، والأسلوب الوحيد الذى يمكن أن نبدأ به لفهم موقع أمريكا فى المنظور الإدراكى لجماعات معينة مدنية ودولية، هو أن نسمح لممثلى الأصوات من مثل جماعة المسلمين الأمريكيين أن يكونوا مسموعين.

* * *